سر العربية

ما هو السر الذى عجز عن فهمه خصوم اللغة العربية
والذى عارض ما قرره علم اللغات ؟

الاستاذ أنور الجندي

ان ما تواجه به اللغة العربية فى عالم الغرب لا يكشف عن تقدير حقيقى للغة العربية بقدر ما يكشف عن محاولة البحث وراء سر هذه اللغة الذى اعطى وما زال يعطى هذه الامة تلك القوة وذلك الثبات وهذه القدرة الفائقة على المقاومة ورد العدوان والوصول الى امتلاك الارادة ·

ولقد تواترت اخبار كثيرة بعد معركة رمضان توحى بالاهتمام البالغ بالدراسات الاسلامية فى مختلف جامعات الغرب والتركيز على اللغة العربية بالذات بوصفها لغة القرآن ولغة امة العرب ولغة الثقافة والعقيدة لما يصل الآن بدون مبالغة الى الف مليون من المسلمين ·

والمعروف ان الاستشراق قد أولى اهتمامه باللغة العربية منذ وقت بعيد وانشأ فى الجامعات الاوربية كراسى لها ، خاصة فى اكسفورد وكمبردج خلال القرن الخامس عشر الميلادى · امكن على اثرها ترجمة القرآن الى اللغة الانجليزية عام 1734 .

ثم انشىء عام 1916 فى مدرسة اللغات الشرقية كرسى للغة العربية ، وقد تضاعفت هذه المراكز حتى بلغت عشرين مركزا فى سبع جامعات مختلفة ولا ريب ان مثل هذا قد حدث فى فرنسا والمانيا وايطاليا والولايات المتحدة والهدف هو استكشاف الامة العربية عن طريق لغتها ولسانها رغبة فى احتوائها وحربها ومن هذه المعاهد انطلقت الدعوات التى حملها رجال من الغرب اولا ثم من العرب ثانيا داعية الى العامية والى كتابة الحروف العربية باللغة اللاتينية وهى دعوات بدأت منذ احتلال مصر واحتلال الجزائر وعرف من رجالها كولون وولكوكس ووليمور وعشرات غيرهم ثم جاء بعد ذلك لطفى السيد وسلامة موسى ومارون غصن ولويس عوض وعشرات غيرهم ·

ولم تتوقف هذه الحملات منذ بدأت ، فهى تظهر فى قطر من الاقطار ثم فى قطر آخر ، ولكنها تتوارى دون توقف · وآخر هذه الحملات مشروع العربية الاساسية التى تقدمت به بعض الهيئات الاجنبية عام 1973 فى مؤتمر برنابا ، ولا عجب فى ذلك فان

اللغة العربية هدف من اكبر اهداف التقريب والغزو الثقافى وان المؤامرة على الفصحى مستمرة وموجهة اساسا الى القرآن والاسلام ·

ومنذ ان طوق الاستعمار العالم الاسلامى وسيطر عليه كان من اعظم خططه ايقاف اللغة العربية عن النمو ، فحيل بينها وبين أن تساير الاسلام فى حركة توسعه وكان ذلك من اخطر التحديات واضخم المحاذير التى واجهت حركة الاسلام النامية القوية المندفعة الى الأمام فى محاور متعددة، الى قلب افريقيا، والى جنوب شرق آسيا والى الغرب ، وما تزال تلك من اكبر القضايا الجديرة بالعناية والبحث لازالة العوائق التى تقف فى طريق تكامل النمو الاسلامى ، دينا ولغة ذلك لان هذا الدين ، كتابه القرآن ولغته العربية ، وان اى نمو له بغير اللغة مصاحبة له ومؤازرة · من شأنه ان يقلل من أثره ويخفف من خطوه · وقد شهد التاريخ كيف سيطرت اللغتان الفرنسية والانجليزية على اجزاء كبيرة من الاقطار الاسلامية والعربية الاسيوية والافريقية التى احتلها الاستعمار الغربى كما سيطرت اللغة الهولندية على أجزاء كثيرة من جنوب شرق آسيا ·

هل تصبح العربية لغة العالم الاسلامى :

ولاريب انه كان لسيطرة اللغتين الغربيتين ، اثر كبير فى ايقاف نمو اللغة العربية فى بلادها غير أن انكسار الموجة الاستعمارية والفكرية فى السنوات الاخيرة قد يجدد الأمل فى العودة الى الخط الطبيعى الجامع بين الاسلام واللغة العربية بحيث تصبح العربية الفصحى لغة المسلمين فى كل مكان بعد لغتهم القومية لأنها لغة الفكر والثقافة والعقيدة . ولأنها اللبنة الاولى فى بناء الوحدة الاسلامية التى هى فى اساسها وحدة فكر وعقيدة وثقافة ·

وفى الباكستان تظهر منذ سنوات اشعة كثيرة لهذا العمل ، ويحمل رجالها الدعوة الى ان تصبح اللغة العربية لغة رئيسية فى الثقافة الاسلامية الباكستانية التى تعتمد على اللغة الأوردية وقد قرر الباحثون الذين حملوا لواء هذه الفكرة منذ اكثر من ثلاثين عاما أن للغة العربية مكانتها العظمى لأنها هى التى حملت رسالة السماء (القرآن) هذه الرسالة (الاسلام) التى اضاءت آفاق الكون برشدها ، وهم يردون الفضل الى الامة العربية التى رفعت راية التوحيد وفتحت مشارق الارض ومغاربها وحملت معها لغتها وثقافتها من حدود (فرنسا الى أرض السند) مما ادى الى انكباب الناس على تعلم العربية وثقافتها (وخاصة فى الشعبين العظيمين : الفرس والترك مع مسلمى الهند)ومن ثم تجلى أن اللغة العربية لغة لاتعرف الحدود الزمانية والمكانية لأنها حاملة لرسالة الاسلام ويقول الاستاذ (جل سعيد شام بن تريب الله) فى بحث له : ان الباكستان دولة اسلامية غرسها العرب فى أول رحلة لهم فى فتح السند ، وها هى الشجرة تعطى ثمارها واللغة العربية بوصفها لغة القرآن والحديث فان تعلمها فريضة على كل مسلم ، وأول ما يبدأ به مسلمو باكستان هو تعليم ابنائهم القرآن الكريم ثم اللغة العربية كما يتعلم هؤلاء الاطفال اللغة العربية فى المدارس العصرية هذافضلاعن ان اللغةالأوردية تكتب بالحروف العربية ، كذلك اللغات الاقليمية فانها جميعا تكتب بالحروف العربية واقربها الى العربية : اللغة السندية التى تحمل ستين فى المائة من الفاظ اللغة العربية ·

وفى اكثر من قطر فى افريقيا وآسيا تتردد الدعوة الى وجوب جعل اللغة العربية « لغة ثانية » فى البلاد الاسلامية التى لاتتكلم العربية وأن فى العالم الاسلامى حسبما اورده احصاء أخير اكثر من 250 مليونا من المسلمين يكتبون الحروف العربية وأن الحروف العربية قد انتشرت منذ جاء الاسلام وكتبت بها لغات اسلامية كثيرة منها الفارسية والافغانية والكردية والمغولية والبربرية والسودانية والساحلية ولغة اهل الملايو واللغة التركية (مثل عام 1926) وذلك عدا اكثر من مائة مليون عربى يكتبون بالخط العربى ·

وهكذا نرى انه مع محاولات الغزو الفكرى والتغريب للقضاء على اللغة العربية فى بيئاتها او ايقاف نموها فى البلاد التى يمتد اليها الاسلام فانها تحاول أن تكسر هذا القيد ، لتستعيد مكانتها من

جديد ، بعد أن حجبتها الفرنسية والانجليزية سنوات طويلة .

والفضـــل ماشهـدت

ومن العوامل التى تدعو الى دعـم الجهود وتركيزها فى ابلاغ رسالة اللغة العربية الى العالمين نجد أن الذين استطاعوا أن يفهموها ويعرفوا قدرها من متصيفى الغرب قد شهدوا لها شهادة حق .

تقول الدكتورة جاكين ماركس الاخصائية فى علم اللغات (سان باولو بالبرازيل) بعد أن امضت سنوات فى دراسة لغات العالم ، أن العربية من بين العشر اللغات الاكثر انتشارا فى العالم ، وانه لايسبقها الا الصينية (605 مليـون) والانجليـزية (233 مليون) علما بأن اغلب هؤلاء ليسوا انجلـيزا وان فيهم هنودا وامريكان .

ويشير الاستـاذ (بيروجيرو) كليـة الآداب والعلوم الانسانية بمدينة نيـس فى بحث ضاف لـه عن اللغة العربية انها : اثرت تاثيرا ضخما وعميقا فى اللغات الفرنسية والايطالية والاسبانية وان عشرات من الكلمات الفرنسية ذات أصل عربى منها الكحول والاكسير وان العرب قد كشفوا للعالم بصفتهم مبرزين فى ميدان الكمياء والصيدلة عدة مواد ومحاولات مثل (الكافور) و (القطران الملاصق) وأن عشرات من الكلمات العربية دخلت الى أوربا عن طريق التجار العرب الذين كانوا يقصدون بلاد ايطاليا وخاصـة البندقية وتستعمل هذه الالفـاظ اليوم فى البحريـة والموازين والميدان العسكرى كدار الصناعة والتى تحولت الى (ارسنال) وكنجم النطير والزنيـت (السمت) وكلمة الصفر والكارا والقنطار وكلمات الزعفران والخروب والسبانخ والغزال والببغاء .

ويقول : وقد بدأ يقل مفعول الادب العربى على الغرب ابتداء من القرن الرابع عشر ، واقتصر تزويد القاموس الفرنسى عبر اسبانيا وايطاليا طوال الفترة من القرن الخامس عشر الى الثامن عشر بعدة كلمات ومفردات أثرت فى العلم الحديث واللغات الحديثة .

ويؤكد المستشرق (ازنة امبروس) ان الثقافة الانسانية تعتمد على لغتين فحسب ، هما العربية واللاتينية ويقول : أن اللغة العربية بقيت عزيزة الجانب لم تتأثر بغيرها من اللغات بل على العكس كان لها تأثيرها الواضح على غيرها من لغات الارض جميعا ، وانه لا يمكن فهم المصنفات الادبية الفارسية أو التركية بدون العودة الى الكلمات العربية وذلك أن وحى القرآن الكريم الذى لايجارى يعد بلاريب اساس عقيدة الانسانية والثقافة البشرية .

ويقول وليم ردل : أن اللغة العربية لـم تنتهقر قط فيما مضى امام لغة من اللغات التى احتكت بها وذلك ان لها لينا ومرونة تمكنانها من التكيف وفقا لمقتضيات العصر ، ولقد كان للغة العربية فى لغات الامم المسلمة اثر طبيعى ، ذلك انه بفضل القـرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكـاد تعرفـه اى لغة من لغات الدنيا ، والمسلمون جميعا مؤمنون بأن العربية وحدها هى اللسان الذى أحل لهم أن يستعملوه فى صلاتهم وبهذا اكتسبت اللغة العربية من زمن طويل مكانة رفيعة فاقت جميع اللغات الاخرى التى تنطق بها شعوب اسلامية .

الســر الذى خفــى على الشعوبيين :

من هذا كله نعرف «سر» الحملة على اللغةالعربية والتآمر عليها فهى لغة القرآن والاسلام واللغة التى لم تنقهقر منذ جاء الاسلام ولـم تفقد حيويتهـا أو نفوذها ، وقد قبرت عشرات اللغات وما تزال هـى حيـة .

ولقد يظن خصومها مـن رجال الاستشـراق والتبشير والتغريب انهم يستطيعون أن يقارنوها باللغة اللاتينية ويدعون الى ارتفاع اللهجات العربية لتصبح لغات تقبر بعدها العربية كما قبرت اللاتينية عندما ظهرت اللغات الغربية الحديثة : الفرنسية والايطالية والانجليزية ، ولكنهم واهمون وقاصرون عن فهم ابعاد اللغة العربية ومكانتها ، ولذلك فان قوانين علـم اللغات التى انتزعوها من اللغات الاوربية تعجز عن أن تستوعب لغة القرآن ؛ ذلك أن اللغة العربيـة ليست لغة امة فحسب ولكنها الى ذلك لغة دين وعقيدة وفكر يستوعب اكثر من الف مليون من المسلمين ويمتد

اربع عشر قرنا وما من لغة بلغت ذلك طولا وعرضا ·

ولقد حاول التغريب أن يصطنع طائفة من الشعوبيين والمستغربين ليحملوا لواء هذه الدعوة وحاولوا ما استطاعوا ثم فشلوا وعجزوا ، وعادوا هم يكتبون باللغة العربية الفصحى ومن هؤلاء سلامة موسى ولويس عوض أعدى أعداء اللغة العربية ، ذلك لانهم وغيرهم انما اندفعوا بأهواء الدين والعنصرية والحقد الاعمى ، ولو كانوا درسوا ابعاد قضية اللغة العربية وصلتها بالقرآن الكريم الذى حماها من دخول المتحف ما عاشت والى ان يرث الله الارض ومن عليها لقصروا فى باطلهم ، ولتوقفوا عن غيهم ، ومن هنا فقد خبثت تلك العبارات التى يرددها القائلون : هذه اللغة ملكنا ونحن أصحابها ولنا حق التصرف فيها ، وذلك قول باطل وغير صحيح ومردود، يرده واقع التاريخ ومنطق البحث العلمى ، وربما كان صحيحا بالنسبة للغات الاوربية أما بالنسبة للغة العربية فان الامر جد مختلف ذلك أن اللغة العربية منذ أن نزل بها القرآن أعطاها ابعاد مترامية وواقعا خاصا متميزا وسيظل الترابط بين المسلمين ولغة الضاد الفصحى : لغة القرآن قائما ، محطما كل قوانين علم اللغات التى تعجز عن أن تفسر العربية .

وما تزال حلقات جديدة من المؤامرة على اللغة العربية تظهر هنا وهناك بين حين وآخر وعلينا أن نكون واعين لمصدرها ، كاشفين لزيفها ·